

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الثالث بعد المائة

٢٩ رجب سنة ١٣٦٢

١ أغسطس سنة ١٩٤٣

العلم والحريات الأربع

في الرسالة التي وجهها الرئيس روزفلت الى مجلسي الكونغرس الاميركي يوم ٦ يناير سنة ١٩٤١ قال « وفي الايام المقبلة التي نتري ان محيطها بكل ضمان؛ شوق ان يقوم العالم على اربع حريات انسانية اساسية. اولاً - حرية الكلام والتعبير، في كل بقعة من بقاع الارض. ثانياً - حرية كل امرىء في عبادة الله على طريقته الخاصة، في كل بقعة من بقاع الارض. ثالثاً - التحرر من ربة العوز، وهو اذا أفرغ في عبارات السياسة الدولية كان معناه عقد اتصالات اقتصادية تضمن لاجناء كل أمة عيشة راضية، في كل بقعة من بقاع الارض. رابعاً - التحرر من الخوف، وهو اذا أفرغ في عبارات السياسة الدولية كان معناه خفض السلاح خفصاً عالمياً واسع النطاق حتى يستحيل على أمة ما أن تعتدي على جارة لها، في كل بقعة من بقاع الارض

كذلك تكلم روزفلت السياسي والنصلي الاجتماعي. فماذا يقوله العلم في هذه الحريات، لو تحيّم العلم رجلاً يستطيع أن يرب، أو لو نولى عالم مهعة الاعراب عنه؟

ليس ثمة ريب في ان الحريات الأربع أصيلة في روح العلم. وغرضه وتاريخه تطوره وارتقائه، وليس ثمة ريب كذلك في أن معقد الرجاء في المستقبل، إنما هو تآزر العلم والحرية. ولعل غير واحد من قراء هذا المقال يذكر قول الانجيل « وتعرفون الحق والحق يحرركم »

وبلا حرية تفكير والتعبير عن الفكر، ما كان لاهم كان، وبغير العلم في المستقبل. وتعتبر

روحه يكون الرجا ضعيفا في تحقيق حرية الانسان . فاناس ما فشتوا من مقر التاريخ ، بل ومن العصور السابقة امصر التاريخ للذون ، يناضلون ويعوتون في سبيل معرفة الحق ، ولكي يطلقوا غيرهم من قيود كثيرة ثقيلة تستبدم

ومن المآثر الأولى التي يدين بها البشر ال العلماء الأول تجرير الناس من ربة الشعر وعبادة الأوثان . ومع ذلك في كثير من بلدان العالم الآن : تجد حرية اناس في عبادتهم أو تقيد بقيود باهظة . وشراً من القيود المادية التي تقيد العبادة ذلك الاستعباد الروحي ، الذي يفرض على المرء ، ويلتص الصغار على عبادة « الدولة » التي يدها بعضهم كلة القدرة مسيطرة على كل صغيرة وكبيرة في حياة الناس المادية والاجتماعية والفنية والروحية

ان سر الحياة في التربة التي يزكو فيها العلم أسلوباً ونتيجة ، هو حرية البحث وحرية التعبير . فالباحث الذي تمسك غوامض الحياة وتوسى اليه أسرار الطبيعة باصع خفية ويكون ذهنه مهتماً عليه أن يطلق خفياً من كل قيد ، بل حيث يفرد البحث . فاذا قال له البحث في العظم والدم والاحافير ، أن الانسان يمت بصلات كثيرة الى طوائف الحيوان ، على نحو ما يقول أصحاب التطور العضوي فليس أن يخضع للدليل ، ويجب أن يناج له أن يقول ذلك . واذا هداه البحث الى أن الأرض ليست مركز الكون ، كما يقول أصحاب الملك الحديث من عصر كوبرنيكوس وفاليفيو ، انقاد الى النتيجة : ووجب أن يناج له الاعراب عن رأيه فلا يعتد ولا يفتي . واذا تبين ان الاحتران هو الاعتماد بالا كجين أخذ به وأذاعه ، بغير أن يعرض تقطع رأسه كما فعل رجال الثورة الفرنسية برأس لافونزييه . واذا أبدت الارصاد قوله في تحذب أشعة الضوء ، ووجب ألا تنكره حكومة ما لأن صاحبه اينشتين وهو غير آري لأنه اذا انقضت حرية البحث ، وحرره تبادل نتائج البحث ، سلب الاستوت العلمي سر حياته ، واذا سلب سر حياته ، عاد الظلام يرين على المقول ، والملاسل تقيد الفكر ، ولو لم تكن من حديد . أي ان شجرة العلم ، ينمشى فيها الدول فاليس . وجميع مخترعات الأرض ، وهي من شجرة العلم في عزلة أثره مردها الى ما كشف من نواميس الطبيعة ، وهي في منزلة الجدور . ما أبلغ قولك يا قولنير حين قلت : « اني أمقت ما تقول وأخالنك في كل كفة منه ، ولكني أذفع بحياتي عن حقتك في أن تدونة »

فانصت الى طبيعة العلم وتدرجه ، وبين الحررتين الأولى والثانية صلة وثيقة ولا تنقسم بغير ان يعود الانقسام على العلم وعن الحررتين ، وعلى الاحتمح . ونظم ضرر

وعن طريق التمر والتفقه - لان العصور . هذا الناس من نظرية الثالثة وهي التي

وصفها روزفلت بقوله : التحرُّر من ربقة العوز . والقول في ما صنعه العلم من هذه الناحية حتى الآن يستغرق عشرات الجلدات ، في وصف ما استنبطه العلماء في ميادين استغلال موارد الطبيعة من معدنية وزراعية ، ووفروه من مأكل وملبس ومسكن وصحة لطوائف كثيرة من الناس . ورخاء البشر وسعادتهم مرتبطان بالموارد الطبيعية المتاحة لهم . وبحسن استغلالها . وبغير ذلك لاحتدي النيات مها تمسح ولا الآمال مها تسم . فوفرة هذه الموارد وإجادة استغلالها من الموضوعات التي يعني بها كل من يسيه مستقبل البشر على سطح الأرض . والعلماء يجمعون على أن وفرة الموارد الطبيعية تكفي عدداً من سكان الأرض يفوق عددهم الآن . ولكنها موزعة توزيعاً غير متساوي على سطح الأرض وهذا أصل طائفة كبيرة من وجوه النزاع السياسي والاقتصادي التي مني بها البشر . فإتاحة هذه الموارد لجميع الشعوب شرط أصيل للاجتماع دولي مستقر . وإلى هذا أشار روزفلت في تفسير « التحرُّر من ربقة العوز » حيث قال في العبارة التالية : « وهو إذا أفرغ في عبارات السياسة الدولية كان معناه عقد اتفاقات اقتصادية تضمن لأبناء كل أمة عيشة راحة . في كل بقعة من بقاع الأرض » . وإلى هذا كذلك أشارت المادة الرابعة من دستور المحيط الأطلسي إذ جاء فيها : « أنهما (أي روزفلت وتشترنيل واضعا هذا الدستور) يحاولان — مع احترام التزاماتهما القائمة — منح جميع الدول صغيرة كانت أو كبيرة ، ظافرة أو مقهورة ، حق الوصول إلى اتفاقات تجارية متساوية ، والحصول على مواد العالم الأولية التي تحتاج إليها لرخائها الاقتصادي »

وقد صنع العلم سائر عظمة خلال القرن الماضي ، في استغلال موارد الأرض . ولكن الذين اعتمدوا على العلم في استغلالها ، حصروا الفائدة التي تمنح منها ، في نطاق ضيق أو خاص . فالاستغلال لم يكن على أساس نظرة شاملة شاملة . ومن هنا ما نشاهد في بلد كبير غني بالموارد الطبيعية كالصين والهند من فاقة وسوء حال ، وما نشاهد في بلد آخر من عيش رخي . ومن هنا كذلك ما طرقت سمنا في أثناء الأزمة الاقتصادية العالمية في العقد الماضي ، عن تكديس تاج الأرض في بلد أو أكثر . وعن اشتداد الحاجة إلى هذا التاج في بلد آخر أو أكثر . والعلم الحديث . لا يكفي لتبني كفاية الموارء الطبيعية واستغلالها ، بل ينبغي لها موارد جديدة فتقنها حيل العلماء . فكأنهم أضافوا إلى موارد الطبيعة ، وبعضها سائر إلى النفاذ ، موارد لا تأخذ ولا تنفذ . وقد خسرنا من أشهر مصادراً عن ذلك عندما قلنا : إن كتب السياسة والاقتصاد التي كتبت أو نشرت قبل قرن ونصف قرن من الزمن تشير إلى أن أقطاب التفكير السياسي والاقتصادي كانوا فارقين في بحر من التشاؤم حيال موارد الطعام المتاحة للبشر على سطح الأرض . وكتب ماثوس رسالة يبين فيها أن عدد سكان الكرة الأرضية يعمل إلى

الزيادة زيادة تفوق زيادة موارد الطعام . وعلى هذا حكم على الجنس البشري بالعيش في حدود الطاقة والجوع ، إلا إذا ابتدع طريقة تحد من تكاثره . ولم يكن أحد من العلماء قادراً حينئذٍ على إدخاض مذهب مالتوس لأن أحداً لم يكن قادراً أن ي تصور ما يجي به العلم في الغذاء . وما جاء به العلم في الغذاء لم يكن فتح مناطق شاسعة من الأراضي البكر وحسب ، فهذه خاضعة على طول المدى لحكم مالتوس . ولكنه جاء بأساليب ، أحلت الزراعة الجديدة محل الزراعة القديمة . فنطاق المعارف أخذ في الاتساع ، وتطبيق المعارف العلمية على الزراعة مقترناً بارتفاع أسباب المواصلات والنقل زاد قدرة الإنسان على إنتاج الطعام من الأرض ، واتاحت له لم يحتاج إليه ولو كان بعيداً عن موقع إنتاجه . فزاد سكان الأرض بمد وفاقه مالتوس زيادة كبيرة ، ولكن معدل إنتاج الأرض زاد كذلك . بل إن زيادة معدل القدرة على الإنتاج الزراعي سبقت معدل زيادة السكان . وهناك دلائل كثيرة تدل على أننا ما زلنا في مستقبل العصر الذي يمكننا فيه العلم من استغلال الأرض على أوفى وجه مستطاع

وما حدث في الزراعة وموارد النظام ، حدث الآن في الصناعة وموارد الصناعة . فقد كان الضن إلى عهد غير بعيد أن موارد الخامات اللازمة للآلات ، في عصر الصناعة ، لا تكفي لإشباع هم الآلات . هنا منحهم لحم ، وهناك بئر تنظر ، وكل من يملك المنجم أو البئر يستطيع أن يشبع هم آلاته ، وعلى غيره أن يقنع أو أن يحارب في سبيلها . ولكن العلم الحديث أثبت ، أنك تستطيع أن تصنع من موارد الطبيعة ، التي تجرّها الأرض — وهي موارد لا تعد وتجدد كل سنة — مادة كبيرة من المواد التي كنا نعتمد فيها على الشاخ . والآبار . نشات من المعائن الكيميائية ، تحمل محل عشرات من الفلزات في أوضاع ووجوه من الاستعمال نشتي . والطايط والدهمط والاسمدة وغيرها ، تصنع الآن بالتركيب الكيميائي . وفول النشوي واحد — في نضر علم الكيمياء أي استخراج مواد الصناعة من منتجات الحقل — كثر لا يفتى . في حيو به طاقة تجهزها من نيا كلها . وفيها مواد كثيرة تصلع نشتي الصناعات معلولة على مواد الطعام التي تؤخذ من هذه الحبوب ، يستخرج دهن محل محل النشط في محركات دبرل . ويصنع نوع من البترين . وصورف . ومواد من قبيل المعائن تدخل في هياكل شيايك السيارات ومقايض أكر الأبوب ، ودهان يدهن به الخشب والحديد ، ومطاط وغير ذلك . والنحرر من الموز يحرق في أرض النحرر من الجوع والرض ونحن من هذا التطور العلمي لا نزال في مستقبل الرحلة الأولى

قال رجل السياسة « النحرر من رشفة العوز » . قال رجال العلم : « ليك » ،

بين أيديكم »

أما الحرية الرابعة فهي التي وصفها روزفلت بقوله إنها «التحرر من الخوف» .
والعنى الاول الذي أتجه اليه ذهن روزفلت هو التحرر من خوف الحرب . فهل عند العلم
ما يقوله في قدرة الانسان على التحرر من خوف الحرب ؟

من عهد قريب حمد كاتب علمي أميركي يدعى بروس بلينن ، الى استطلاع آراء العلماء
في هذا الموضوع وقد وصف نتائج بحثه في كتاب جديد دعاه الرجال الذين يبنون
المتقبل ، ويلخص ما قاله في هذه الناحية الخاصة في ما يلي : مع تعدد الآراء في هذا
الموضوع الخطير يكاد يكون هناك اجماع بين علماء العصر في هذه الأيام على ان الحضارة الحديثة
لا تطوي على قوى قاسرة ، تدفع البشر دفعا الى الحرب كل فترة قصيرة من الزمان ، ما لم
ينحدر البشر الى همجية لا يحق لاحد أن يتوقعا ، رغم نواب الحرب . فالحرب في نظر
علماء الاقتصاد لا تجدي جدوى مالية ، لا على القالب ولا على المغلوب ، ولو أتفق جزئيا سير
عما يفتق على الحرب ، في سبيل تحسين العيش وتربية الناس نهج السبيل الى ارتقاء شعوب
الارض ارتقاء صحيحا في السعة والعمل وطلب الاشياء العليا . وضغط السكان بحسب ما هو
معروف من اتجاه معدّل المواليد والوفيات الآن ، لا يكفي في نظر علماء الاجتماع لتسوية
الحرب . فهو في كثير من الأمم وعلى الأكثر مائل الى النقص . والزراع على مرادد الخيامات
الصاعية لا يجب أن يكون باعنا على الحرب ، اذا صنت النية وأحسن التوزيع . فوارد
الارض نفسها وآيات العلم الحديث والصناعة ، تكفي جمع الشعوب وتفي بحاجتها القسوى
وعلماء الطبيعة البيولوجية لا يقرون وجود غريزة تدفع الى الحرب ، او تجعل الحرب
ارأ لا نفرا منه . فالاعتدال في نظم يتلون بلون البيئة الاجتماعية . فعند ما كانت
البيئة الاجتماعية تبيح المبارزة كان الجبان يقدم عليها ، وعندما فقت البيئة الاجتماعية بأن
المبارزة شر اجتماعي ، أصبح أشد الناس ميلا الى العدوان يسمى الى حسم الخلاف بالتحاب
او هن طريق المحاكاة وعلماء النفس والتربية يذهبون الى انه في الوسع السيطرة على الانفعالات
والتحكّم فيها والتسامي بها . وهذه الطائفة من العلماء تذهب الى ان المرين متأهبون للذهاب
الى مدارس الأمم المغتربة ، واخراج جيل بعد سنين ، يؤمن بتفضيل الاسلوب الديمقراطي
ومزاياه في تنظيم الاجتماع البشري على النظم الاخرى . فالعلماء يجمعون او في حكم المجمعين
على ان عاناً يدير حرب مستطع وانة على كل حال ضروري ، وفي تحقيق هذا الغرض لا بد
لاقطاب الأمم من الاستعانة بما كسفه العلم الحديث في الزراعة والصناعة لتوفير أسباب العيش
لكل أحد ، وما يقتضيه العلم الحديث من حرية هي سر حياته . وما عرفه علماء النفس
والاجتماع بالبحث والتخريب عن طبائع البشر وطبائع منشأهم